

العلاقات الإسلامية البيزنطية في فترة
حكم النساء وأزواجهن
١٠٢٨ - ١٠٥٦ م / ٤١٩ - ٤٤٨ هـ

للأستاذة الدكتورة
عليه عبد السميع الجنزوري
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
بكلية البنات - جامعة عين شمس

١٩٩٥ م

كان للعلاقات الإسلامية البيزنطية على طول تاريخ العصور الوسطى دورا بارزا وبصفة واضحة المعالم على صفحات تاريخ العالم ككل وتاريخ المسلمين والبيزنطيين على وجه الخصوص .

والحقيقة أن أغلب حلقات تلك العلاقات نالت حظها الوافر من الدراسة والبحث المستفيض سواء من الجانب الإسلامي أو من الجانب البيزنطي ، بينما بقيت بعض الجوانب القليلة التي لم يركز عليها الضوء إلا قليلا . لذا أثرت أن أتناول أحد تلك الجوانب في مقالتي التالي الخاص بالعلاقات بين المسلمين والبيزنطيين في فترة حكم زوي Zoe ويثودورا Theodora ابنتي الإمبراطور قسطنطين الثامن Constantin VIII (١٠٢٥-١٠٢٨ م / ٤١٦-٤١٩ هـ) ، الذي إنتهى باعتلائه العرش البيزنطي العصر الذهبي للإمبراطورية البيزنطية ٨٤٣-١٠٢٥ م / ٢٢٩-٤١٦ هـ .

كان قسطنطين الثامن - آخر الأعضاء الذكور للأسرة المقدونية - إمبراطورا مساعدا Co-Emperor (١) لأخيه باسل الثاني (٩٧٦-١٠٢٥ م / ٣٦٥-٤١٦ هـ) لمدة نصف قرن تقريبا ، إلا أنه كان مساعدا خاملا ، وبذلك ظل يعتبر الشخصية النافذة إلى جوار شقيقه القوي ، وعندما أصبح كهلا كان إمبراطورا بالاسم فقط ، فقضى معظم وقته في حضور مآدب الطعام والشراب والاستمتاع بحفلات المسرح التي أنفق وبدد فيها - بطيش وإهمال -

(١) Ostrogorsky (G.): History of the Byzantine State, Oxford, 1968, p. 210.

(٢) كان لنظام الإمبراطور المساعد في الدولة البيزنطية أهمية خاصة في الحفاظ على نظام توريث العرش في الأسر الحاكمة الشرعية . ولم يكن هذا النظام يخضع للتأتون في بيزنطة كما كان الحال في روما ، وعليه فقد أخذ أباطرة بيزنطة يتبعون أسلوبا عمليا في اختيار خليفتهم المرغوب فيه كإمبراطور مساعد وذلك في فترة حكمهم وقبل ولادتهم . وكان هذا الإمبراطور يلبس التاج ويمتلك النقب الإمبراطوري ، بل إن صورته كانت تظهر غالبا جنباً إلى جنب مع الإمبراطور الفعلي على النقود ، وكان اسمه يدرج في المراسيم الإمبراطورية . وعند وفاة الإمبراطور الفعلي ، يحل الإمبراطور المساعد محله ويتمتع بكامل سلطات الإمبراطور ، وعلى ذلك يحفظ حق إرتقاء العرش في داخل الأسرة الإمبراطورية ويدعم استمرار الدولة ، ولقد إستمر إختيار الإمبراطور المساعد من الأسرة الحاكمة الشرعية حتى خرقت تلك القاعدة على عهد الإمبراطور قسطنطين السابع (٩١٣-٩٥٩ م / ٣٠١-٣٤٨ هـ) عندما عين والد زوجته رومانوس ليكابينوس في ديسمبر ٩٢٠ م / ٣٠٨ هـ إمبراطورا مساعداً له . مما كان له أثره في خروج العرش من الأسرة الشرعية إلى أسرة غير شرعية .

(Ostrogorsky: Ibid, P.P. 107, 264).

الموارد المالية الضخمة للإمبراطورية التي كان باسل الثاني قد جمعها . وهكذا وصف بأنه
كان إمبراطورا فاسقا مسرفا^(١) .

كان هذا هو رأي المصدر البيزنطي في قنسطنطين الثامن ، أما المصدر السرياني
فينقله لنا (ابن العبري) الذي إنفرد وحده بالرأي القائل بأنه كان "لطيفا مهذبا دمث الأخلاق ،
وكان رجلا ذي نفس عظيمة"^(٢) ، وبتعبير آخر كان دمث الخلق بشوشا شهم النفس^(٣) .

توفى قنسطنطين الثامن في ١٠٢٨م/٤١٩هـ ولم يكن له أولاد ذكور^(٤) وترك ثلاث
بنات فقط^(٥) ، كانت أكبرهن وهي إيودوكيا Eudocia مشوهة الوجه من أثر مرض
الجذري ، لذا سلكت راهبات^(٦) وعليه فلم تكن كبرى بنات قنسطنطين الثامن هي التي
"ملكها الروم"^(٧) عليهم بعد والدها .

وإذا كانت بعض المصادر العربية والسريانية قد أشارت إلى أنه بوقاة قنسطنطين
(ملك الروم) إنتقل الملك إلى بنت له "وقام بتدبير الملك والجيش زوجها وهو ابن خالها"^(٨)
أو أنه أوصى بالمملكة "حين إحتضاره لابن أخيه رومانوس" أو "صهره زوج إينته"^(٩) ، فإن
المصادر والمراجع الغربية تشير إلى أنه على خلاف المعتاد ، وعندما كان الإمبراطور
قنسطنطين الثامن على فراش الموت حاول أن يتم زواج إحدى بناته - الأميرتين

(1) Ostrogorsky: Ibid, P.P. 298, 302.

(2) Bar Hebraeus: The chronography of Gregory Abul Faraj, V. 1, P. 191.

(3) ابن العبري : تاريخ الزمان ، نقله للعربية الأب إسحق أرملة السرياني ، بيروت ١٩٨٦ ، ص ٨٢

(4) Strogorsky: Op.cit, P. 321.

(5) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، بيروت ١٩٨٢م - ١٤٠٢هـ ، ج ٩ ، ص ٤٩٨ ؛ القلقشندي :
صبح الأعشى ، بيروت ١٩٨٠ ، ج ٥ ، ص ٤٠١ ؛

Ostrogorsky: Op.cit, P. 321.

(6) Ibid, P. 321.

(7) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٩٨ ؛ القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٠١ .

(8) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٣٧ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك
مصر والقاهرة ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ، ج ٤ ، ص ٢٧٠ ، وغالبية المصادر
العربية تنطق على إمبراطور الروم إسم ملك الروم .

(9) ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٨٢ .

المستئين^(١) - وبحث عن زوج مناسب ، وفي اللحظات الأخيرة وقع إختياره على رئيس المدينة رومانوس أرجيروس Romanus Argyrus الذي كان ممثلاً بارزاً للأرستقراطية الوطنية للعاصمة ، وكان يشرفه أولاً انتماءه إلى أسرة بيزنطية عريقة ، هذا إلى جانب وظيفته ثانياً . فقد كانت وظيفة رئيس المدينة Eparch of the City باستمرار - خاصة بالنسبة للقسطنطينية - وظيفة مشهورة ، وقد زادت مكانتها في القرن الحادي عشر ، بينما نجد كتاب المراسيم Book of Ceremonies في القرن العاشر قد وصف الإبرش (بوالد المدينة) ، بل قيل إن تلك الوظيفة كانت من المناصب الإمبراطورية الرفيعة ، وأن صاحبها لا يفرقه عن الإمبراطور شيئاً سوى لبس الأرجوان^(٢) .

تزوج رومانوس من زوي في ١٢ نوفمبر ١٠٢٨م / ٢٢ شوال ٤١٩هـ . وكانت آنذاك في الخمسين من عمرها . وبعد مرور ثلاثة أيام على وفاة قنسطنطين الثامن إرتقى رومانوس العرش بإسم رومانوس الثالث أرجيروس^(٣) ، الذي إمتد حكمه من ١٠٢٨ إلى ١٠٣٤م^(٤) / ٤١٩-٤٢٦هـ ، وكان على قدر من الثقافة ، وكان عمره آنذاك ستين عاماً . أما عن مواهبه الطبيعية كحاكم فكانت منعدمة تماماً ، لكنه حاول أن يحذو حذو الشخصيات البارزة في الماضي ، والتي كانت أطياها تسبح باستمرار أمام عينيه^(٥) .

(١) كانت زوي وثيودورا قد ودعتا من الشباب ، لكنهما كانتا آخر أعضاء الأسرة المقدونية ، وعليه فقد قدر لهما أن تلعبا دوراً مهماً في التاريخ البيزنطي خلال السنوات التالية .

(Ostrogorsky: Op.cit, P. 321).

(2) Ostrogorsky: Ibid, P. 321; Hussey (J.M.): Cambridge Medieval History, V. IV, The Byzantine Empire, Part 1, Byzantine and its Neighbours, Chapter V, The Later Macedonians, The Comneni and the Angeli 1025-1204, Cambridge 1966, P. 195.

هنا يوضح رنسيومان أن رئيس المدينة كان مسئولاً عن الشرطة والأمن وضبط النظام وتوزيع جرايات الخبز المجانية . (رنسيومان : الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، ١٩٦١ ، ص ٩٤) .

(3) Ostrogorsky: Op.cit, P.P. 321-322.

أجبر رومانوس أرجيروس على طلاق زوجته وتحويلها إلى سلك الراهبات وذلك رغم معارضة الكنيسة ، كي يتم تلك الزيجة الجديدة ويصل إلى الحكم وليس الأرجوان .

(Previte Orton: The shorter Cambridge Medieval History, V.1, P. 273, Hussey. Op.cit, Cam. Med. Hist, V.IV, Part 1, Chapter V, P. 195).

(4) Previte Orton: Op.cit, V.1, P. 273.

(5) Ostrogorsky: Op.cit, P. 322.

أما زوجته الإمبراطورة زوي ، فكانت هي الإبنة الوسطى للإمبراطور قنسطنطين الثامن ، وكانت على قدر كبير من الجمال الذي شهد به بعض المؤرخين المعاصرين لها وعلى رأسهم (سيليوس Psellus) إلى جانب تلك الصورة الرائعة التي رسمها لها أحد كبار الفنانين بالفسيقساء في كنيسة سانت صوفي في صالة العرض الخاصة بالنساء . كانت زوي هي أكثر بنات قنسطنطين الثامن جمالا ، ومن دلائل شدة جمالها أنها ظلت مثيرة للإنتباه حتى في كيويتها بشارتا الصافية الناعمة وبإهتمامها بأنافتها ومظهرها (١) ، طموحة و ساذجة ، تعتقد بشدة في كلام العرافين والمشعوذين . إلا أنه لم يكن لديها أية دراية بفن الحكم (٢) . هذا إلى أنها كانت تتصف بالشهوانية والتهور والتبذير (٣) .

حكم رومانوس الثالث الإمبراطورية البيزنطية كشريك للإمبراطورة زوي (٤) وهو الذي أشار إليه المصدر العربي بإسم (أرمانوس) (٥) .

والواقع أنه منذ اللحظة الأولى لزواج زوي من رومانوس ، ولمدة عدة سنوات ، كان هناك حاجزا واضحا بينها وبينه ، فمجرد إعتلاء رومانوس العرش البيزنطي ، ترك زوي الإمبراطورة الكهلة المرمقة كما مهملا ، هذا بالإضافة إلى أنه ضيق عليها مصروفاتها (٦) .

(1) Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V, P. 194.

هذا قد يتعامل البعض عن سر بقاء تلك الإمبراطورة دون زواج حتى من الخمسين رغم جمالها وأنافتها وحسن مظهرها ؟ إلا أن الإجابة تستتج أو تستشف من أن ذلك حدث بعد إختلالها في حبها الأول . فقد قرأنا عن مفاوضات دارت من أجل زواج الإمبراطور الغربي الشاب أوتو الثالث Otto III منها ، إلا أن تلك المفاوضات لم يقدر لها النجاح ، فعندما توجهت إلى إيطاليا في يناير ١٠٠٢م/٢٩٢هـ تلقى العلم فوجئت بوفاة خطيبها وهو في ريعان شبابه ، وذلك عند وصولها إلى مدينة (باري) الإيطالية .

(Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist. V. IV, Part 1, Chapter V, P.P. 184-187)

(2) Hussey: Ibid, P. 194.

(3) Previte Orton: Op.cit, V. 1, P. 273.

(4) Previte Orton: Ibid, P. 273, The Encyclopedia Americana, International Edition, V. 29, P. 788.

(٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٣٨ ، ٤٩٨ - ٤٩٩ ؛ أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ١٥٧ ؛ ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ، ج ٤ ، ص ٢٧٠ .

(6) Ostrogorsky: Op.cit, P. 323, Hussey: Op.cit, Cam Med. Hist, V IV, Part 1, Chapter V, P. 196.

أما عن العلاقات الإسلامية البيزنطية في عهد رومانوس وزوي فابثنا نجد أن المراجع الغربية أشارت إليها بشئ من الإقتضاب قائلة "سوء حظ رومانوس أرجيروس أنه هزم في بلاد الشام" وأن العاصمة القسطنطينية أصيبت في عهده بعدة كوارث منها الطاعون ، الجراد ، المجاعة والزلازل (١) . أما المصادر العربية والسريانية فقد فصلت الحديث وكشفت النقاب أكثر عن تلك الحلقة من العلاقات بين الجانبين الإسلامي والبيزنطي .

فقد قيل : إن "ملك الروم" أي الإمبراطور البيزنطي خرج إلى بلاد الشام في ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م (٢) بجيش كبير يقدر بثلاث مائة ألف مقاتل وتوجه إلى حلب التي كانت بيد شبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس (٣) وعسكروا بالقرب منها "فلحقهم عطش شديد ، وكان الزمان صيفا وكان أصحابه مختلفين عليه ، فمنهم من يسحده ومنهم من يكرهه" (٤) .

هنا أشار رومانوس على من معه بالتريث حتى يسقط المطر وتكثر المياه ، لكن "ابن الدوقس" - وهو من أكابر الروم - رفض تنفيذ هذا الرأي وأشار بالإسراع قصرا لشر يتطرق إليه ولتدبير كان قد دبره عليه" ورافقه ابن لؤلؤ في عشرة آلاف فارس وسلكوا طريقا آخر . عندئذ خلا بالملك أحد أصحابه وأعلمه أن ابن الدوقس وابن لؤلؤ قد حالقا أربعين رجلا . هو أحدهم على الفتك به ، هنا خاف رومانوس "ورحل من يومه راجعا" (٥) .

(١) Previte Orton: Op.cit, V.1, P. 273.

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٠٤ .
والمقصود بملك أو إمبراطور الروم هنا رومانوس الثالث أرجيروس لأن ذلك كان في فترة حكمه .

(٣) قامت أسرة صالح بن مرداس في حلب ٤١٤هـ/ ١٠٢٣م واستقلت بالأمر فيها حتى ١٠٧٩م (حسن خبشن : الحرب الصليبية الأولى ، ص ١٥) .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٠٤ .

(٥) نفس المصدر والجزء ، ص ٤٠٤ - ٤٠٥ .

ولم يلبث أن لحق به ابن الدوقس وسأله عن سبب رجوعه فأرجع ذلك إلى اجتماع العرب عليهم وقربهم منهم ، ولم يلبث أن قبض على ابن الدوقس وابن لؤلؤ ومن معهما ورحل الإمبراطور راجعا فتنبعه "العرب وأهل السواد حتى الأرمن يقتلون وينهبون" (١) .

ويقال أيضا إن سبب عودة الإمبراطور إلى بلاده أن حشدا قليلا من العرب هاجم القوات البيزنطية "فظن الروم أنها كبسة" فاجتاروا فيما يصنعون حتى أن ملكهم لبس خفا أسودا وعادة ملوكهم لبس الخف الأحمر" عندئذ إنهزم البيزنطيون وغنم المسلمون جميع ماكان معهم (٢) .

أما ابن العبري فيعطينا تفسيراً دينياً إنفرده به ، لذا يجب علينا أن نتناوله بشئ من الحيدة والحذر ، وذلك عندما يقول : " إن الملوك السابقين لرومانوس ، نجحوا في التخلص من اضطهاد المؤمنين (المسلمين) لهم ، لذلك إزدهروا في كل مكان . لكن هذا الملك بدأ يضطهد المسيحيين ، وأبعد عن طريق النفى البطريرك المقدس ابن عبدون Mar Abdun وأساقفته وذلك إتباعاً للعادة القديمة ، وعليه فقد حطم الله الروم المخادعين المضللين وسحقهم أمام أعدائهم" (٣) .

أما عن خسائر البيزنطيين في ذلك اللقاء مع المسلمين وحلفائهم فقد أوضحها ابن الأثير بقوله : إنها كانت "أربعمائة بغل محملة مالا وثيابا" إلى جانب هلاك كثير من البيزنطيين من شدة العطش ، ولم ينج إلا الملك وحده "ولم يسلم معه من أمواله وخزائنه شئ البتة وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا" (٤) .

(١) نفس المصدر والجزء ، ص ٤٠٥ .

(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة .

(3) Bar Hebraeus: Op.cit, V. 1, P. 191.

أما مترجم ابن العبري فيعطينا ترجمة هذا النص على النحو التالي : "إن الملوك السابقين لرومانوس كان النصر حليفهم في الحروب لأنهم لم يكونوا يتشبهون بالمسائل الدينية . أما رومانوس هذا فقد عادى بطريركنا القديس ابن عبدون (١٠٠٤-١٠٣٠م/٣٩٤-٤٢١هـ) وأساقفته ونفاهم جاريا على عادة اليونان المكارين القدماء ، ولذا سمح الرب بسحقهم تجاه أعدائهم" . (ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٨٣) .

(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٠٥ .

بينما يذكر المصدر السرياني أن خسائر البيزنطيين كانت "سبعين بعيرا محملة نقودا وأنية ذهبية وفضية وأقمشة فاخرة وبغالا كثيرة حتى بيع البغل الجيد في حلب بدينارين" . ولم يبق مع الملك رومانوس فيما قيل "خيمة أو كأس يشرب بها ماء" (١) .

وفي سنة ٤٢٢هـ / ١٠٣١م استولى البيزنطيون على مدينة الرها التي كانت بيد عطير النعميري ، فاستولى نصر الدولة بن مروان حاكم ديار بكر على حران وجهاز من قتل عطيرا حاكم الرها فشنع صالح بن مرداس حاكم حلب إلى نصر الدولة أن يعيد الرها إلى ابن عطير وإلى ابن شبل مناصفة فقبل شفاعته وسلمها إليهما وذلك في سنة ٤١٦هـ (٢) / ١٠٢٣م . وكان في الرها برجان حصينان أحدهما أكبر من الآخر فتسلم ابن عطير الكبير وابن شبل الصغير وظلت المدينة معهما إلى تلك السنة ٤٢٢هـ فراسل ابن عطير الإمبراطور البيزنطي رومانوس وباعه حصنه بعشرين ألف دينار هذا إلى جانب عدة قرى من بينها قرية سن ابن عطير ، وتسلم البيزنطيون البرج الذي كان له ودخلوا البلد عنوة فملكوه وهرب منه أصحاب بن شبل ، عندئذ قتل البيزنطيون المسلمين وخرّبوا المساجد (٣) .

وعندما سمع نصر الدولة الخبر سير جيشا إلى الرها ، فحاصرها "وفتحها عنوة" وإعتصم من بها من الروم بالبرجين ، وإحتفى النصراني بالبيعة الخاصة بهم ، "وهى من أكبر البيع وأحسنها عمارة" فحاصروهم المسلمون وأخرجوهم ثم قتلوا أكثرهم ونهبوا البلد ، وبقي البيزنطيون في البرجين فسار إليهم جيش بيزنطي عظيم يقدر بنحو عشرة آلاف مقاتل ، فانهزم أصحاب ابن مروان أمامهم ، عندئذ دخل البيزنطيون البلد وما جاوره من بلاد المسلمين وصالحهم ابن وثاب النعميري على حران وسروج "وحمل إليهم خراجا"

(١) ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٨٣ - ٨٤ . Bar Hebraeus: Op.cit, V, 1, P. 192.

(٢) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ١٥٧ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤١٣ ؛ أبو الفدا : المصدر السابق نفس الجزء والصفحة ولين شبل هو ابن شبل الدولة بن صالح بن مرداس .

عنها^(١) . كما أشار ابن الأثير في موضع آخر إلى إستيلاء البيزنطيين على الرها في عهد الإمبراطور روماتوس بشئ من الإيجاز بقوله : "وهو الذي ملك الرها من المسلمين"^(٢) .

كذلك إستولى البيزنطيون في تلك السنة أيضا ٤٢٢هـ / ١٠٣١م على قلعة أقامية بالشام . ويرجع السبب في ذلك إلى أن الخليفة الفاطمي الظاهر^(٣) أرسل وزيره الدزبري^(٤) إلى الشام فملكه . ثم قصد حسان بن المفرج الطائي وألج في طلبه فهرب منه ودخل إلى الأراضي البيزنطية "ولبس خلعة ملكهم وخرج من عنده وعلى رأسه علم فيه صليب" وبصحبه جيش كبير ، فسار إلى أقامية وباغتها وإستولى عليها "وغنم ما فيها وسبى أهلها وأسره" عندئذ أرسل الدزبري يستنفر الناس للغزو^(٥) .

وفي ١١ أبريل ١٠٣٤م^(٦) / جمادى الأولى ٤٢٥هـ مات رومانوس الثالث في الحمام ، وذلك بعد أن تم اتفاق بين زوي وعشيقها ميخائيل البافلاجوني Michael the Paphlagonian على التخلص منه .

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤١٣ .

(٢) نفس المصدر والجزء ، ص ٤٩٨ .

(٣) هو أبو الحسن علي بن منصور بن نزار بن معد ، ولد ليلة الأربعاء لعشر خلون من شهر رمضان سنة خمس وتسعين وثلاث مئة . بويج له يوم عيد الأضحي سنة إحدى عشرة وأربع مئة . (ابن أبيك الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر ، ج ٦ ، الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م ، ص ٣١٣ ؛ المقرئزي : إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، تحقيق الدكتور محمد حلمي محمد أحمد ، ج ٢ ، القاهرة ١٣٩٠هـ - ١٩٧١م ، ص ١٢٤ .

(٤) الدزبري أو التزبري هو الأمير المنظر أمير الجيوش عدة الإمام سيف الخلافة عضد الدولة شرف المعالي أبو منصور أنوشكين . مولده بلاد ما وراء النهر في بلد الترك في البلد المعروف بختل وسبى منه وحمل إلى كاشغر وهرب إلى بخارا وملك بها وحمل إلى بغداد ثم إلى دمشق سنة ٤٠٠هـ فأستراه القائد تربر بن أونيم الديلمي . ثم إنتقل إلى ملكية الحاكم بأمر الله عام ٤٠٣هـ ، وصار يرتقى حتى سيره مع سديد الدولة ذي الكفائتين الضيف في السكر إلى الشام عام ٤٠٦هـ ، ثم تولى بعلبك ، ثم قيسارية ثم تنقل في الوظائف حتى إنتهى إلى ولاية دمشق . (ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ، طبعة بيروت ١٩٠٨ ، ص ٧١-٧٥ ؛ المقرئزي : إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، ج ٢ ، ص ١٣٢ حاشية (١) للمحقق د. محمد حلمي محمد أحمد) .

(٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٢٠ ؛ أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ١٥٨ .

(٦) Ostrogorsky: Op.cit, P. 323.

وثمة عدة آراء مختلفة بين المصادر والمراجع العربية والأجنبية عن كيفية التخلص

من رومانوس منها :

أن زوي وميخائيل أملا الحيلة في قتله ، فمرض "فأدخله الحمام كارها وخنقه"
وأظهرا أنه مات في الحمام (١) ، أو أن زوي دست ميخائيل عليه فقتله (٢) ، أو أنه توفي
نتيجة لدفع زوي وعشيقتها له بالقوة تحت الماء ، عندئذ إكتفت زوي بعد أن شاع خبر وفاته
بأن دخلت إلى الحجرة التي يرقد فيها وألقت عليه نظرة واحدة ثم تماكنت نفسها (٣) .

لم تلبث زوي أن تزوجت بعد ذلك مباشرة من عشيقها الشاب ميخائيل البافلاجوني
رغم المعارضة الشديدة (٤) . وهنا ارتقى ميخائيل العرش البيزنطي بإسم ميخائيل الرابع .
Michael IV ١٠٣٤-١٠٤١ م (٥) / ٤٢٥-٤٣٣ هـ "على كره من الروم" كما دون إين
الاثير (٦) .

كان ميخائيل من أصل وضعي (٧) فقد كان ابنا لأحد فلاحي بافلاجونيا (٨) وهو الذي
أشار إليه إين الاثير بقوله إنه "رجل صيرفي ليس من بيت الملك وإنما بنت قسطنطين
إختارته" (٩) .

يدين ميخائيل الرابع بارتقائه العرش لأخيه John the Orphantrophus وهو أحد
الخصيان ذوي النفوذ والسطوة ، فأحضره للتصير الإمبراطوري وصمم على أن ينتزع له

(١) إين الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٩٩ .

(٢) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٠٠ .

(3) Hussey: Op.cit, Cam, Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V, P. 196.

(4) Ibid: P. 196.

(5) Ostrogorsky: Op.cit, P. 323, The Encyclopaedia Americana, V. 29, P. 788.

(٦) إين الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٩٩ .

(7) The new Encyclopaedia Britanica, V. VI, P. 858, The Encyclopaedia Americana, V. 19, P. 11.

(8) Ostrogorsky: Op.cit, P. 323.

(٩) إين الاثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٣٨ .

وربما خلط القلقشندي بينه وبين أخيه حنا عندما ذكر أن زوي زوجة رومانوس مالت "إلى المتحكم
في دولته" (القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٠٠) .

العرش - الذي يعتبر هو محروما منه لأنه خصي - عندئذ وقعت الإمبراطورة العجوز في حبه وتزوجته (١) .

ورغم أن ميخائيل الرابع أثبت أنه حاكم قدير وقائد شجاع (٢) ، إلا أنه كان يعاني من نوبات الصرع (٣) . فقد " أصابه الصرع ودام به " (٤) . وعلى ذلك ترك تصريف دفة الحكم كلية لأخيه الخصي حنا (٥) .

أما عن العلاقات الإسلامية البيزنطية في تلك الفترة ، فقد أسعفتنا المصادر بما يلي ، حيث يقال إن البيزنطيين استولوا في ٤٢٥ هـ / ١٠٣٤ م على قلعة بركوي وكانت متاخمة للأرمن ، وكانت تحت حكم أبي الهيجاء بن ربيب الدولة ابن أخت دهموزان بن مصلان ، فاختلف هو وخالة ، فبعث الأخير إلى البيزنطيين وأغراهم بالإستيلاء عليها ، وبالفعل أرسل الإمبراطور البيزنطي جيشا كبيرا استطاع الإستيلاء عليها ، ولما وصل الخبر إلى الخليفة "أرسل إلى أبي الهيجاء وخاله من يصلح بينهما ليتفقا على إستعادة القلعة" فأصطلحا بالفعل ، لكنهما لم يتمكنوا من إستعادتها رغم إنضمام عدد كبير من المتطوعين إليهم ضد البيزنطيين ، وذلك لشباب أقدام الأخيرين فيها (٦) .

(1) Ostrogorsky: Op.cit, P. 323; The New Encyclopaedia Britannica, V. VI, 1768, P. 858.

(2) Ostrogorsky: Op.cit, P. 324.

(3) Ibid: P. 324; Previte Orton: Op.cit, P. 273, Larousse Encyclopaedia of Ancient and Medieval History, General Editor: Marcel Dunan Honorary, Foreword by Arnold Toynbee, P. 297; The Encyclopaedia Americana, V. 19, P. 12;

ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٩٩ . وهنا يعزى بريغيت أورتون سبب ذلك الصرع إلى شعور ميخائيل بالندم ، نتيجة إشتراكه في قتل رومانوس الثالث .

(٤) القلتشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٠٠ .

(5) Previte Orton: Op.cit, P. 273; The Encyclopaedia Americana, V. 19, P. 12.

(٦) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٣٧ .

كان الخليفة العباسي آنذاك هو القائم بأمر الله أبو جعفر بن القادر ، الذي ولد في نصف ذي القعدة سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة . ولى الخلافة عند موت أبيه في يوم الإثنين الحادي عشر من ذي الحجة سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة . وكان ولي عهده في الحياة ، وهو الذي لقبه بالقائم بأمر الله ، (السيوطي : تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة الأولى ١٣٧١ هـ / ١٩٥٢ م ، ص ٤١٧) .

وفي ٤٢٦هـ/١٠٣٥م جمع ابن وثاب النميري جيشا كبيرا من العرب واستجد بالبيزنطيين الموجودين بالرها "فسار معه منهم جيش كثيف" وهاجم ممتلكات نصر الدولة بن مروان ونهب وخرب عندئذ توجه ابن مروان بقوات ضخمة لمواجهة ابن وثاب وحلفائه مما دفعهم للتراجع ، عندئذ أرسل ابن مروان إلى إمبراطور الروم "يعاتبه على نقض الهدنة ، وفسخ الصلح الذي كان بينهما" وأرسل يستجد بحكام الأطراف ، "فكثر جمعه من الجند والمتطوعة" وعزم على التوجه إلى الرها ومحاصرتها ، قدمت رسل الإمبراطور البيزنطي تفيد بأنه "يعتذر ويحلف أنه لم يعلم بما كان" ثم أرسل الإمبراطور إلى قواته التي بالرها وإلى قائدهم يستنكر ما قاموا به ، وفي نفس الوقت أهدى إلى نصر الدولة هدية قيمة ، فتراجع عما كان قد عزم عليه من غزوهم وفرق القوات المجتمعة معه (١) .

وفي نفس السنة أيضا ٤٢٦هـ/١٠٣٥م تقدمت القوات البيزنطية إلى ولاية حلب فخرج إليهم حاكمها شبل الدولة بن صالح بن مرداس ، فإقتتل الفريقان وهزم حاكم حلب البيزنطيين ، وتبعهم إلى عزاز ، وغنم غنائم كثيرة وعاد سالما (٢) .

أما في ٤٢٧هـ/١٠٣٦م فقد توجه ابن وثاب النميري ، حاكم حران ومعه جيش كبير من الأكراد والمعيدين إلى "سويرك" وهي للروم ودوخها" وقتل من أهلها ثلاثة آلاف وخمسمائة شخص وسبى مجموعة من النساء والفتيان . ثم زحف إلى الرها وحاصرها ومنع عنها المؤونة . عندئذ ضاق الأهالي بالحصار وسلموه المدينة ، فإبهمز البيزنطيون وتحصنوا في برج المدينة فقاتلهم المسلمون وقتلوا بمائتين وخمسين رجلا وتعذر عليهم الإستيلاء على البرج ، "فنهبوا المدينة" وعادوا . ويقال إن عدد الفتيات والفتيان الذين سبهم كان ثلاثة آلاف نسمة (٣) .

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٣٣ . وهو يسمى الإمبراطور البيزنطي هنا (ملك الروم) .

(٢) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ٤٤٤ : أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ١٥٩ .

(٣) ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٨٦ .

والحقيقة أنه خلال مدة حكم ميخائيل الرابع مع زوي ، التي استمرت سبع سنوات ، عقدت الإمبراطورية البيزنطية معاهدة مع الخلافة الفاطمية في مصر وأحرزت إنتصارات مؤقتة في جزيرة صقلية (١) .

ففي ٤٢٧هـ / ١٠٣٦م عقدت معاهدة بين ميخائيل الرابع والخليفة الفاطمي المستنصر بالله (٢) . وفي رجب ٤٢٧هـ / مايو ١٠٣٦م تحالف كل من ابن وثاب وابن عطيير وتصاهرا وجمعا قواتهما وأمدهما نصر الدولة ابن مروان بجيش كبير ، وسار الجميع إلى السويداء وكان البيزنطيون قد أعادوا تجديد بنائها ، فحاصرها المسلمون "وفتحوها عنوة وقتلوا فيها ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل ، وغنموا ما فيها وسبوا خلقا كثيرا" ثم توجهوا إلى الرها وحاصروها "وقطعوا الميرة عنها" حتى غلت الأسعار بها غلاء شديدا ، عندئذ خرج "البطريق" الذي بالمدينة متخفيا إلى الإمبراطور وأخبره حقيقة الأمر فأنجده خمسة آلاف فارس عاد بهم . ولما علم ابن وثاب وقائد قوات نصر الدولة بذلك كمنأ لهم فلما إقتربوا منهم أخذوهم على غرة فقتل عدد كبير من البيزنطيين وأسر مثلهم ، كما أسر البطريق أيضا وحمل إلى باب الرها وخيروا أهلها إما أن يفتحوا لهم باب المدينة أو يقتلوا البطريق والأسرى الذين معه "ففتحوا البلد للعجز عن حفظه" وتحصنت القوات البيزنطية الموجودة بالمدينة بقلعتها ، قدخل المسلمون المدينة ، وغنموا ما فيها "وامتلأت أيديهم من الغنائم والسبي وأكثروا القتل ، وأرسل ابن وثاب إلى آمد مائة وستين راحلة عليها رؤوس القتلى" عندئذ سار حسان بن الجراح الطائي بجيش يقدر بخمسين ألف فارس من العرب والروم نجدة لمن بالرها" فسمع ابن وثاب بذلك فسار مسرعا لملاقاته قبل وصوله ، هنا خرج البيزنطيون الموجودين بالرها إلى حران فقاتلهم أهلها ، وفي نفس الوقت عاد ابن وثاب

(١) The New Encyclopaedia Britannica, V. VI, (1768), P.P. 857-858.
(٢) عندما توفي الخليفة الفاطمي الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن علي بن أبي علي المنصور الحاكم في منتصف شعبان سنة ٤٢٧هـ / يونيو ١٠٣٦م ، متأثرا بداء الإسقفاة الذي ظل يلزمه مدة عشرين سنة منذ صباه ، تولى بعده ابنه أبو تميم معد ولقب بالمستنصر بالله ، وكان مولده بانقاهرة سنة عشر وأربعمائة ، وفي أيامه كانت قصة البساسيري وخطب له ببغداد سنة خمسين وأربعمائة . وكان الحاكم في دولته بدر بن عبد الله الحمالي الملقب بالأنفصل أمير الجيوش . (ابن كثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٤٧-٤٤٨ ؛ أما ابن العبري فيذكر أن الظاهر خليفة مصر توفي في ٤٢٧هـ / ١٠٣٥م .
(Bar Hebraeus: Op.cit, V. I, P. 196.

مسرعا بمجرد سماعه ذلك الخبر فابتقض على البيزنطيين وقتل منهم عددا كبيرا وعاد
المنهزمون إلى الرها (١) .

أما في ٤٢٩ هـ / ١٠٣٨ م فقد عقدت معاهدة بين ميخائيل الرابع والخليفة الفاطمي
المستنصر بالله ، تم فيها الاتفاق على أن يطلق الإمبراطور البيزنطي سراح خمسة آلاف
أسيرا مسلما ، على أن يسمح للإمبراطور بأن يجدد بنيان كنيسة القيامة ، وبالفعل أطلق
الإمبراطور سبيل الأسرى ووجه أحد خبراء العمارة إلى بيت المقدس للقيام بتلك المهمة بعد
أن أمده بالأموال الوفيرة ، وبالفعل أتم مهمته على الوجه الأكمل ورممها كما كانت من
قبل (٢) .

أما عن صقلية فقد تم الاستيلاء على مسينا ٤٢٩ هـ / ١٠٣٨ م وعلى سيراكوزا
٤٣٢ هـ / ١٠٤١ م ولكنها كانت إنتصارات مؤقتة (٣) .

نعود مرة أخرى إلى ما دون عن الجبهة الشرقية فنرى ابن العبري يذكر أنه في سنة
٤٢٩ هـ هاجم الأتراك الغز أرمنية أكثر من مرة وقتلوا خلقا كثيرا من أكرادها وعربها
وإستولوا على غنيمة كبيرة . ثم زحفوا على أورمية بأذربيجان فأنحدر أكراد الجبل وإشتبكوا
معهم فإنتصر الغز وقتلوا عددا كبيرا منهم أو "أجهزوا على عدد وافر منهم" (٤) فلما وجد
الأمير صالح بن وثاب النميري حاكم حران وأرمنية أنه عاجز عن مواجهة البيزنطيين

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٤٨ - ٤٤٩ .

(٢) نفس المصدر والجزء ، ص ٤٦٠ ، محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ،
دار الفكر العربي (١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م) ص ٢٤٥ ؛ هنا يذكر المقرئ في إعطاء الحنفا بأخبار
الأئمة الفاطميين الخلفاء ، ج ٢ ، ص ١٨٢ أن ذلك كان في ٤٢٧ هـ وأن المعاهدة كانت بين الخليفة
الظاهر وميخائيل الرابع . أما Bar Hebraeus: Op.cit. V.I, P. 196 أو ابن العبري : تاريخ
الزمان ، ص ٨٨ فيختلف في السنة فقط حيث يذكر أنها كانت ٤٢٧ هـ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٦٠ ، محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ،
ص ٢٤٥ . أما ابن العربي : تاريخ الزمان ، ص ٨٨ فيذكر أن عدد الأسرى كان خمسين ألف
وأنهم كانوا مسيحيين ومعتقلين في مصر . والراجع أن ذلك الخطأ راجع للترجمة ، لأن المعاهدة
بتلك الشكل تكون لمصلحة البيزنطيين دون المسلمين .

(٤) The New Encyclopaedia Britannica, V. VI (1768), P. 858.

(٥) ابن العبري : المصدر السابق ، ص ٨٩ ، Bar Hebraeus: Op.cit, V.I, P. 198.

والأتراك معا ، عقد الصلح مع البيزنطيين وتخلّى لهم عن الرها فاستولوا عليها وزاد عددهم فيها (١) . عندئذٍ عمر البيزنطيون الرها "العمارة الحسنة وحصنها" فخاف المسلمون على حران منهم (٢) .

وإذا كان ابن العبري قد ذكر أنه في سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م زحف البيزنطيون إلى بلاد الشام فتصدى لهم الأمير أنوشكين بجوار حماه وتقلب عليهم وأسر ابن عم الإمبراطور "وقتل خصبا كبيرا" (٣) . فالراجح أنه أخطأ في ذكر السنة حيث نرجح أنها ٤٣٢ هـ إستنادا لما دونه ابن الأثير ضمن أحداث تلك السنة الأخيرة ، من أنه كانت هناك موقعة بين القوات المصرية والقوات البيزنطية وأن النصر فيها كان للمسلمين "كانت الوقعة بين عسكر المصريين سيره الذبري ، وبين الروم ، فظفر لألسنهم" (٤) .

فقد رأينا كيف هادن الفاطميون البيزنطيين في عهد المستنصر بالله وميخائيل الرابع سنة ٤٢٩ هـ ، لكن لم تمر سوى ثلاث سنوات تقريبا أي في ٤٣٢ هـ ، إلا وتمت مراسلات بين الإمبراطور البيزنطي وإبن صالح بن مرداس ، فقد راسل ميخائيل إبن صالح "يستميله" ، وراسله صالح لينتقوى به على الذبري ، خوف أن يأخذ منه الرقة ، لكن عندما وصلت تلك الأخبار إلى الذبري ، هدد إبن صالح ، فاعتذر الأخير . ثم إن جمعا من بني جعفر بن كلاب دخلوا ولاية أفاعية فعاتثوا فيها ونهبوا عدة قرى ، فخرجت عليهم بعض القوات البيزنطية ، قاتلتهم وهزمتهم وشنتت شملهم . ثم أرسل حاكم حلب إلى الذبري يخبره أن البيزنطيين يتجهزون لمهاجمة البلاد "أن القوم على التجهز لقصد البلاد" ، عندئذٍ جهز الذبري جيشا وجعل حاكم حلب على مقدمته فتقابلوا مع الجيش البيزنطي بين مدينة حماه وأفاعية "واشتد القتال بينهم ، ثم إن الله نصر المسلمين ، وأذل الكافرين" . وهكذا

- (١) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٦٠ ، ابن العبري : المصدر السابق ، ص ٨٩ ،
Bar Hebraeus: Op.cit, V.1, P. 198; هنا يذكر مترجم كتاب ابن العبري أن الأمير إبن وثاب كان صاحب سورية وأرمينية .
(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٦٠ .
(٣) ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٩٠ ، Bar Hebraeus: Op.cit, V.1, P. 199 هنا يذكر مترجم ابن العبري أن الذي قتل هو حاجبا كبيرا لاخصيا (eunuch) كما ورد في الأصل .
(٤) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٩١ .

دارت الدوائر على البيزنطيين وقتل منهم عدد كبير ، وأسر أين عم الإمبراطور فأبقتوه بمبلغ ضخم من المال ، وبإطلاق سراح عدد كبير من أسرى المسلمين ، فتوقف خطر البيزنطيين بعد ذلك " إنكف الروم عن الأذى بعدها" (١) .

والحقيقة أن زوي بزواجها من ميخائيل الرابع ، أخطأت تقدير الأمور مرة أخرى ، فما أن تزوجها ميخائيل حتى أهمل الإهتمام بها كلية ، وحتى حريتها الشخصية وتحركاتها كانت مقيدة بواسطة أخيه حنا الذي كان يراقبها بدقة كي يمنع تكرار المصير الذي أصاب روماتوس أرجيروس (٢) .

الواقع أن المستفيد الحقيقي من وراء تلك الزيجة كان حنا شقيق ميخائيل الرابع ، فقد خطط بدهاء لإستمرار الحكم في أسرته ، فقد أخذ في إعتباره الوفاة المرتقبة لأخيه فحصل على موافقة ميخائيل الرابع ، وأقنع الإمبراطورة زوي بتبني أين أخته المسمى ميخائيل أيضا ، وهو الذي أعطى لقب قيصر (٣) .

وسرعان ما تم لحنا تنفيذ ما خطط ، فعند عودة ميخائيل الرابع من إحدى حروبه مع البلغار ، إشتد عليه المرض ، فأتسحب إلى أحد الأديرة - بعد أن تبني ميخائيل أين أخته - إلا أنه توفي في نفس اليوم ١٠ ديسمبر ١٠٤١م (٤) / ١٤ ربيع الثاني ٤٣٣هـ (٥) . وبمجرد وفاة ميخائيل الرابع خولت سلطات الحكم بالورثة إلى أين أخته ، وتوج بإسم ميخائيل الخامس Michael V (٦) .

(١) - أين الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٩١ - ٤٩٢ .

(٢) Ostrogorsky: Op.cit, P. 323.

(٣) Ibid, P. 326; Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V, P. 198.

(٤) Ostrogorsky: Op.cit, P. 326; The New Encyclopaedia Britannica, V. VI, P.P. 857-858.

(٥) أين الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٩٩ .

(٦) Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V: P. 198; The Encyclopaedia Americana, V. 19, P. 12.

هنا أخطأ أين الأثير ، ج ٩ ، ص ٥٠٢ في القول بأن ميخائيل الخامس كان أين شقيق ميخائيل الرابع وليس أين أخته .

والحقيقة أن حكم ميخائيل الخامس أو الجلفاط (١) The Calker, Calaphates ، أدى بعهد الأسرة البافلاجونية إلى نهاية غير متوقعة (٢) ، وبمعنى آخر "أدت مطامع البافلاجونيين الخسيسة وكرهيتهم إلى تدميرهم" (٣) فقد رد ميخائيل بجحود على ما قدمه له خاله حنا وذلك بأن قبض عليه ونفاه ، دون أن يرتفع بنانا واحدا لتأييد ذلك الخصى الذي كان مكروها من الجميع (٤) ثم إزداد إندفاع ميخائيل الجلفاط أكثر بعد إتمامه لتلك الخطوة السابقة وذلك باتجاهه إلى معاقبة الإمبراطورة زوي أيضا . وعلى حد تعبير (بسلوس) وجد أنها مصدر إزعاج شديد له ، وكان مستمرا في مراقبتها مراقبة صارمة ، كما كان الحال في عهد ميخائيل الرابع ، ثم أتبع ذلك بمحاولة رادعة لإبعادها عن حقل السياسة بعد إتهامها بمحاولة سم الإمبراطور ، وبالفعل ففي يوم عيد الفصح ١٠٤٢م نفيت زوي إلى جزيرة برنسبو Principo في بحر مرمرية ولم تصحبها سوى وصيفة واحدة (٥) .

ولا عبرة هنا بما جاء في بعض المصادر العربية عن حقيقة موقف ميخائيل الخامس من زوجة خاله . فقد ذكر القلقشندي أنه "أحسن السيرة وطلب من زوجة خاله أن تخلع نفسها عن الملك فأبت فنفاها إلى بعض الجزر وإستولى على المملكة سنة ٤٣٣هـ" (٦) .

(١) Previte Orton: Op.cit, P. 274; The Encyclopaedia Americana, V. 19, P. 12.

والجلفاط هو الذي يسد شقوق السفينة .

(2) Ostrogorsky: Op.cit, P. 326.

(3) Previte Orton: Op.cit, P. 274.

(4) Ostrogorsky: Op.cit, P. 326.

(5) Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V, P. 198. Psellus عن

بالنسبة لعيد الفصح ، يقال إن المسيح عليه السلام تساق بين تلاميذه إلى السماء في هذا اليوم ، ووعدهم بإرسال روح القدس . ويأتي هذا العيد يوم إفتارهم بعد صيام أربعين يوما . (الدمشقي: نخبة الدهر في عجائب البحر والبر ، ص ٢٨٠ - ٢٨١) . وعند اليهود يوافق ذكرى خروج بني إسرائيل مصر هربا من فرعون عابرين البحر وهو ما تعنيه كلمة فصح 'عبور' (د. حسين سعيد : الموسوعة الثقافية ، دار

المعرفة، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، ص ٦٨٨) .
(٦) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٠٠ .

وربما كان ابن الأثير أقرب إلى الحقيقة عندما ذكر أن ميخائيل الخامس أحضر زوجة خاله " وطلب منها أن تتربص وتتزوج نفسها عن الملك فأبى ، فضربها وسيرها إلى جزيرة في البحر " (١) .

لكن ميخائيل الخامس لم ينعم بانتصاراته سوى فترة وجيزة (٢) فسرعان ما قامت ثورة عارمة ضمت المخلصين للأسرة المقدونية وحكم على ميخائيل الجلفاط "الذي تجرأ برفع يده ضد من ولدت في الأرجوان بالعزل" ثم سُلِيت عيناه في أبريل ١٠٤٢ م (٣) شعبان ٤٣٣ هـ ، بل قيل إنه سُلِيت عيناه خاله أيضا (٤) .

هنا يعطينا ابن الأثير صورة مفصلة تمثل وجهة النظر العربية عن أسباب الثورة التي أطاحت بأبناء الأسرة البفلاجونية المغتصبة للحكم ، وكيف أعيد العرش لورثة الأسرة المقدونية ، فيذكر أنه بعد أن نفى ميخائيل الجلفاط الإمبراطورة زوي زوجة ميخائيل الرابع إلى جزيرة في البحر " عزم على القبض على البطرك والإستراحة من تحكمه عليه ، فإنه كان لا يقدر على مخالفته " (٥) . فطلب منه أن يعمل له طعاما في دير ذكره بظاهر القسطنطينية ليحضر عنده ، وبالفعل خرج البطرك إلى الدير لينفذ ما طلبه الإمبراطور ، عندئذ أرسل الإمبراطور "جماعة من الروس والبلغار" ، بعد أن إتفق معهم على قتل البطرك سرا ، فقصده ليلًا وحاصروه في الدير ، فاستمالهم إليه بأن دفع لهم أموالا طائلة ، وخرج متخفيا "وقصد البيعة التي يسكنها وضرب الناقوس" فاجتمع البيزنطيون حوله ، فدعاهم إلى عزل الإمبراطور ، فأجابوه إلى مطلبه وحاصروا ميخائيل الخامس أو الجلفاط ، فأرسل الأخير إلى (زوجته) (٦) وطلب منها أن تراه فرفضت "وأخرجته إلى بيعة يتربص فيها" (٧) .

(١) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٩٩ .

(2) Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Cahpter V, P. 198.

(3) Ostrogorsky: Op.cit, P. 326.

(4) Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V, P. 199.

(٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٩٩ .

(٦) خطأ ابن الأثير في كتابه الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٩٩ ، عندما ذكر أن ميخائيل الخامس أرسل إلى زوجته وأحضرها من الجزيرة التي نفاها إليها " لأن التي نفيت هي زوجة خاله لا زوجته هو ، وربما كان سبب الخطأ هو أن الاسمين متشابهين تماما أي ميخائيل الرابع وميخائيل الخامس .

(٧) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٩٩ .

ثم يستكمل ابن الأثير روايته بقوله : إن البطريك والبيزنطيين "تزعوا زوجته" (١) من الملك ، وملكوا أختها لصغيرة وإسمها (تدوره) (٢) ، وجعلوا معها خدماً أبيها يدبرون الملك ، وكحلوا ميخائيل ، ووقعت الحرب بالقسطنطينية بين من يتعصب له وبين من يتعصب لتدوره والبطرك ، فظفر أصحاب تدوره بهم ونهبوا أموالهم" (٣) .

نعود مرة أخرى إلى وجهة النظر الغربية ونقرأ ما دون في المصادر والمراجع البيزنطية ، فنستشف منها أن الإمبراطورة زوي برزت في نفس اليوم الذي تم فيه سمل عيني الإمبراطور ميخائيل الخامس وخاله للجماهير وهي في ثياب الراهبات ، لا في ثيابها الإمبراطورية (٤) ثم أسرع نفس الجماهير إلى دير Petron وإنزعرت منه أخت زوي الصغرى - ثيودورا - التي كانت راهبة "وجروها رغم إرادتها إلى كنيسة سانت صوفي كي ينادوا بها إمبراطورة بالإشتراك مع زوي" (٥) . وقد قيل إن ثيودورا كانت قد حجبت وفقاً لطلب زوي (٦) .

هنا نتوقف قليلاً لنتعرف عن قرب على ثيودورا . فنجد أنها الابنة الصغرى للإمبراطور قسطنطين الثامن ، وكانت طويلة مثله ، جافة ، سريعة في لهجتها وكلامها ، ولم تكن على قدر من الجمال ، لكنها كانت نقية وفي نفس الوقت كانت بخيلة ، هذا إلى جانب أنها كانت على عدم وفاق باستمرار مع أختها زوي (٧) حتى قيل إن زوي كانت شديدة الغيرة منها ، وأنها كانت تفضل معاملة ميخائيل المسينة عن مشاركة أختها ثيودورا في الحكم (٨) .

(١) المقصود زوي زوجة خاله لا زوجته هو .

(٢) المقصود ثيودورا .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٤٩٩ - ٥٠٠ .

(٤) Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V, P. 198.

(٥) Ibid, P. 199.

(٦) Ostrogorsky: Op.cit, P. 326.

(٧) Hussey: Op.cit, Cam. Med. hist, V. IV, Part 1, Chapter V, P.P. 193-194.

(٨) Ibid, P. 199.

وباعتبار أن الأختين كانتا الممثلتين الوحيدتين الشرعيتين للأسرة المقدونية ، لذلك إنتقل إليهما الحكم معا (١) . ولو أن زوي أصرت على أن تكون لها الأسبقية على أختها (٢) .

وهكذا "حكمت الأختين المتباينتين تماما الإمبراطورية البيزنطية" (٣) . لكن رغم أنهما كانتا الممثلتين الشرعيتين للأسرة المقدونية إلا أنه كان يحوقهما عن مواصلة السهر على شئون الإمبراطورية شينين ، أولهما : أنهما كانتا في ذلك الوقت إمرأتين طاعنتين في السن ، وكان من الصعب عليهما توجيه الإمبراطورية إلى الطريق المستقيم ، لذلك فخلال فترة حكمهما القصيرة إتحدت العناصر المدنية والعسكرية على العمل معا بإنسجام ، وكان الجميع يفتنمون أية فرصة للسيطرة على شئون الحكم (٤) وثانيهما : أن العداوة بين الأختين كانت متأصلة حتى أصبح من الضروري العثور على رجل قوي ليمسك بزمام الحكم (٥) .

هنا يعلق (بسللوس Psellus) على حكم زوي وثيودورا القصير بأنه "يمدنا بمثال فريد للحكم المشترك والمشاركة في السلطة العليا" (٦) .

كانت حاجة الإمبراطورية ملحة إلى وجود رجل قوي على رأس الحكومة ، لذا كان لابد من زواج إحدى الأختين الكهلتين "وكانت ثيودورا لا ترغب في الزواج" (٧) ، أما زوي فقد شرعت في البحث من جديد ، وبطريقة مستمرة ، عن زوج ثالث لها ، رغم أنها كانت قد بلغت الرابعة والستين من عمرها (٨) . وبالفعل وجدت ضالتها في "الفارس الموسيم"

-
- (1) Ensslin (W): The Government and administration of the Byzantine Empire, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 11, Chapter XX, P. 5; Ostrogorsky: Op.cit, P. 326; Previte Orton: Op.cit, P. 274.
 - (2) Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V. P. 199.
 - (3) Previte Orton: Op.cit, P. 274.
 - (4) Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V, P. 199.
 - (5) Ostrogorsky: Op.cit, P. 326.
 - (6) Ensslin (W): Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 11, Chapter XX, P. 5. عن Psellus.
 - (7) Ostrogorsky: Op.cit, P. 326.
 - (8) Ibid, P. 326.

قنسطنطين مونوماخوس Constantine Monomachus (١) ، الذي كان أحد أعضاء حزب
السناتو البارزين ، فاختذته زوجا ثالثا لها في ١١ يونيو ١٠٤٢م/٤٣٣هـ (٢) .

ولقد كان ابن الأثير أقرب إلى الحقيقة حين أوضح في أحداث ٤٣٣هـ "أن الروم
افتتروا إلى ملك يدبرهم ، فكتبوا أسماء جماعة يصلحون للملك في رقاع ، ووضعوها في
بنادق طين وأمروا من يخرج منها بندقة وهو لا يعرف بإسم من فيها ، فخرج إسم
قنسطنطين ، فملكوه وتزوجته الملكة الكبيرة ، وإستزلت أختها الصغيرة تذورة عن الملك
بمال بذلته لها" (٣) .

وثمة فقرة عن هذه النقطة أخذت عن الترجمة العربية (للاب إسحق أرملة) مترجم
كتاب تاريخ ابن العبري إلى العربية والذي سماه (تاريخ الزمان) ، وهي مليئة بالأخطاء
التاريخية واللغوية ، لذا نود أن نبرزها ونصححها ، وهي أنه أورد في أحداث
٤٣٣هـ/١٠٤٢م ما نصه : توفي ميخائيل ملك الروم دون عقب ، وتولى شئون المملكة
إبنتاه زواي وثودورا ثلاثة أشهر . ثم عقد الأقطاب المشورة وانتقوا منهم ثلاثة أشخاص
كفوتين ، وكتبوا أسماءهم في أوراق وضعوها في صندوق ختموها بالشمع وأحضروا صبيا
مد يده وإستخرج أحدها وبها إسم مونوماخوس فزفوا إليه ثودورا المذكورة ونادوا به ملكا
باسم قنسطنطين . وأسنت ثودورا لأختها زواي تسعة قناطير ذهبيا بدلا من الملك" (٤) .

(1) Larousse Encyclopaedia..., Op.cit, P. 297, The Encyclopaedia Americana, V.
7, P. 650.

(2) Ostrogorsky: Op.cit, P. 326.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٥٠٠ .

(٤) ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٩١ .

هنا يورد ابن العبري زواي بإسم Zoi أو Zai ، ثودورا بإسم Theodora . وبمراجعة ترجمة
النص من الأصل لابن العبري نجد فيه عدة أخطاء منها دون عقب = دون أبناء ذكور ، وانتقوا
منهم ثلاثة = وانتقوا من بين أبنائهم ، كفوتين = يصلحون للحكم ، وأسنت ثودورا لأختها =
راعطت ثودورا أختها .

Bar Hebraeus: Op.cit, V. 1, P. 200.

عند تناول النص السابق بالتحليل والنقد وبمقارنته في نفس الوقت بتاريخ ابن العبري

الأصلي نلاحظ ما يلي :

أولاً : يتفق ابن العبري والمترجم على أنه في سنة ٤٣٣هـ / ١٠٤٢م سمعت عيني ميخائيل الخامس وأبعد إلى أحد الأديرة كما مر بنا ، ولا نعلم إن كان قد توفي في تلك السنة أم لا .
ثانياً : كيف يكون ميخائيل قد توفي دون عقب ، ثم تتولى إبنته ، زواي وثودورا - كما سماهما المترجم - شؤون المملكة ؟ وهنا نجد الرد بيساطة على تساؤلنا في أن المترجم أخطأ في ترجمة Without Sons أي (دون أبناء ذكور) إلى (دون عقب) .

الواقع أن ابن العبري خلط هنا بين إينتي قنسطنطين الثامن وبين إينتي ميخائيل المزعومين هنا . ثالثاً : أن ثودورا (ثودورا) لم تتزوج وأن التي تزوجت من قنسطنطين مونوماخوس هي زوي ابنة قنسطنطين الثامن لا أختها ثودورا ، وأنها اعتلت العرش إلى جانبها ، كما سنرى . وعليه يكون الجزء الأخير من الفقرة وهو ، أن ثودورا أسنت لأختها زواي تسعة قنطير ذهباً بدلاً من الملك لا محل لها من الصحة .

كان قنسطنطين مونوماخوس ينتمي إلى أسرة عريقة ^(١) إتصف بالشهامة ورحابة الصدر والسخاء في عطائه ^(٢) وكانت ثقافته عالية ، إلا أنه كان فاسقاً خليعاً ^(٣) وقد توج إمبراطوراً في اليوم التالي لزوجته من زوي ١٢ يونيو ١٠٤٢م ^(٤) / شوال ٤٣٣هـ بإسم قنسطنطين التاسع مونوماخوس ، وبذلك إنتهت تلك الفترة الفاصلة من الحكم النسائي ^(٥) التي استمرت حوالي ثلاثة أشهر .

(1) Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V, P. 199.

هنا يذكر نفس المرجع أنه كان قد حبس في مدينة مطية كآحد المشكوك فيهم سياسياً في عهد ميخائيل الرابع .

(٢) ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٩١ Bar Hebraeus: Op.cit, V. 1, P. 200;

(3) Previte Orton: Op.cit, V. 1, P. 274.

(4) Ostrogorsky: Op.cit, P. 326; Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V, P. 199.

(5) Ensslin (W.): Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV; Part 11, Chapter XX, P. 5.

هنا اختلفت الآراء في وضع قنسطنطين التاسع عندئذ ، فالبعض ذكر أنه بتولية العرش الإمبراطوري "تخلت له السيدتان عن السيادة بصورة آلية" (٢) في حين أوضح رأي آخر أنه أصبح حاكما مساعدا لزوي وثيودورا (٣) وأنه لم يحاول أن يضع أي نوع من القيود على شريكته في الحكم (٤) "تتمتع الأختان مع الإمبراطور العاشق المحب للملذات ، بتبديد المدخرات العامة" (٥) .

أما عن العلاقات الإسلامية البيزنطية في فترة حكم قنسطنطين التاسع وزوي ، فأول ما تسعفنا به المصادر التي بين أيدينا في ٤٣٥هـ / ١٠٤٤م (٦) هو طرد الغرباء المسلمين والنصارى الموجودين في العاصمة البيزنطية ، والذين بلغ عددهم أكثر من مائة ألف شخص ، وكان سبب ذلك أنه سرت شائعة في العاصمة بأن قنسطنطين قتل زوي وثيودورا إبتني قنسطنطين الثامن ، عندئذ ثار الأهالي وأعملوا النهب والسلب في البلد ، فبرز لهم قنسطنطين رسألهم عن السبب فأجابوه أنه قتل الملكتين وأفسد الملك فرد عليهم بنفي تهمة القتل عنه وأخرج لهم الملكتين فلما رأهما الناس سكنوا ، وعندما تقصى حقيقة الأمر علم أن الغرباء هم سبب ذلك الشغب ، وأشير عليه بإبعادهم ، فنودي "أن لا يقيم أحد ورد البلد منذ ثلاثين سنة ، فمن أقام بعد ثلاثة أيام كحل" - أي سلمت عينيه - لذلك رحل عن العاصمة البيزنطية أكثر من مائة ألف مسلم ونصراني "ولم يبق بها أكثر من إثني عشر نفسا ، ضمنهم الروم فتركهم" (٧) .

(١) رنسيان : الحضارة البيزنطية ، ص ٧٤ .

(٢) The New Encyclopaedia Britannica, V. III, P. 102.

(٣) Ostrogorsky: Op.cit, P. 327.

(٤) Ibid: P. 327.

(٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٥١٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٥١ .

(٦) ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٩٤ ، Bar Hebraeus: Op.cit, V. 1, P. 203 .

(٧) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٥١٥ ، Bar Hebraeus: Op.cit, V. 1, P. 203 .

ابن العبري : تاريخ الزمان ، ص ٩٤ . أما ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٥١ فيذكر أن ملك الروم أي الإمبراطور نفي من القسطنطينية كل غريب له فيها دون العشرين سنة .

وقد شهدت سنة ٤٣٧هـ / ١٠٤٦م علاقات ودية بين البيزنطيين والفاطميين في مصر والدليل على ذلك الهدية القيمة التي أرسلها الإمبراطور قسطنطين التاسع مونوماخوس في ثامن ذي الحجة / يونيه من تلك السنة ، إلى الخليفة الفاطمي المستنصر بالله ، والتي اشتملت على "ثلاثين قنطارا من الذهب ، وكان من جملتها بغل وحصان من أحسن الدواب وأغلاها قيمة ، كل منهما عليه ثوب ديباج رومي منقوش ثقيل ، وخمسين بغلا عليها مائة صندوق مصفحة بالفضة ، فيها آنية الذهب والفضة ، منها مائة قطعة بيميناء ، وفيها من الديباج والسندس والأبريسم والعمائم المعلمة ما لا يقدر على مثله" (١) . فما كان من المستنصر بالله إلا أن أرسل إلى الإمبراطور البيزنطي بهدية منلها "من الجواهر والمسك والعود والطراز ، عمل تتيس ودمياط ، ما هو أكثر قيمة مما بعته" (٢) .

وقد تجددت العلاقات الودية بين المسلمين والبيزنطيين في ٤٣٩هـ / ١٠٤٧- ١٠٤٨م وذلك بتجديد الهدنة "بين صاحب مصرويين الروم ، وحمل كل واحد منهما لصاحبه هدية عظيمة" (٣) . لكن في نفس السنة السابقة أيضا ٤٣٩هـ سير المعز باديس صاحب أفريقية أسطولا إلى جزائر القسطنطينية فظفر وغنم وعاد (٤) .

أما من ناحية الشرق فكان الوضع على عكس ذلك بعد ظهور الأتراك السلاجقة ، الذين وفدوا على العراق من منطقة بحر آرال وكان تحمسهم للإسلام وللمذهب السني على وجه الخصوص أبرز ما يميزهم ، ووجدوا في بلاد العراق الخصبة وما حولها ما حملهم على التفكير الجدي في الإستقرار فقام زعيمهم طغرلبيك ١٠٣٨م / ٤٣١هـ بإحتلال جرجان وطبرستان ثم خوارزم ، كما تمكن من هزيمة السلطان مسعود الغزنوي ، وإحتل نيسابور عاصمة خراسان ، وتدرجت القوة السلجوقية في معارج اليأس حتى دخل

(١) المقرئزي : إتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ١٩٤ . هنا يذكر المقرئزي أن القنطار عندهم سبعة آلاف دينار ومائتان دينار . أما جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٥ (عن الألبهيمي : المستطرف في كل فن مستطرف ، فيذكر أن قيمة كل قنطار منها عشرة آلاف دينار عربية) .

(٢) المقرئزي : إتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ١٩٤ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ص ٥٤١ .

(٤) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ٥٤٢ .

السلجقة بغداد في ١٠٥٥م / ٤٤٦-٤٤٧هـ . وكان من الطبيعي أن تحتك القوة السلجوقية الناشئة بالإمبراطورية البيزنطية ، فأخذ السلجقة في الإغارة على أطرافها في البلاد الأرمينية (١) .

ففي سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨-١٠٤٩م عبر جمع صغير من الأتراك الغزمن بلاد ماوراء النهر إلى بلاد إبراهيم بنال ، فرأى أن بلاده تضيق بهم وبمطالبهم ، فأخبرهم بذلك وأشار عليهم بأن "عضوا إلى غزو الروم ، وتجادعوا في سبيل الله وتغنموا ، وأنا سائر على أثركم ومساعد لكم على أمركم" عندئذ تقدموا إلى الحدود الشرقية للدولة البيزنطية ، وسار هو في إثرهم ، فوصلوا ملازكرد وآرزن الروم وقاليقلا ، وبلغوا طرابزون ، فقابلهم جيش من البيزنطيين والأبخاز ، يتدر بحوالي "خمسين ألفا" فحدثت بينهم عدة معارك ، تبادلوا فيها النصر والهزيمة "وكان آخر الأمر الظفر للمسلمين" فقتلوا عددا كبيرا من البيزنطيين ، وأسروا "جماعة كثيرة من بطارتهم ومن أمر قاريط (قاريط) ملك الأبخاز" فحاول أن يفدي نفسه بدفع ثلاثمائة ألف دينار وهدايا بمائة ألف ، فرفض إبراهيم بنال "ولم يزل يجوس في تلك البلاد وينهبها ، إلى أن بقى بينه وبين القسطنطينية خمسة عشر يوما" واستولى المسلمون على تلك القواحي فغلبوها وغنموا ما فيها ، وسبوا أكثر من مائة ألف رأس ، وأخذوا من الدواب والبيغال والغنائم والأموال ما لا يحصى ، وقيل إن الغنائم حملت على عشرة آلاف عجلة وأن في جملة الغنيمة تسعة عشر ألف درع (٢) .

لكن بالرغم من كل ذلك فإن الإمبراطور قسطنطين التاسع فضل أن يحتفظ بعلاقاته الودية الهادئة مع المسلمين ، وخير دليل على ذلك أنه أرسل إلى السلطان طغرل بك هدية عظيمة في ٤٤١هـ / ١٠٥٠م وطلب منه عقد معاهدة سلام بينهما ، فوافق طغرل بك على ذلك ، وكان الشرط الثاني هو تعمير مسجد القسطنطينية ، وإقامة الصلاة والخطبة فيه

(١) حسن حبشي : الحرب الصليبية الأولى ، ص ٢٠ - ٢١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٥٤٦ أحداث ٤٤٠هـ .

وأبخاز بالفتح ثم السكون والحاء معجمة وألف وزاي اسم ناحية من جبل القبق المتصل بباب الأبواب ، وهي جبال صعبة المسلك وعرة لا مجال للخيل فيها ، تجاور بلاد اللان (ياقوت الحموي : معجم البلدان ، المجلد الأول ، دار صادر ودار بيروت حرف الألف والباء وما بينهما) .

لطرلبيك (١) . هذا بالإضافة إلى إحتفاظ الإمبراطور بعلاقات ودية أيضا مع الخلافة العباسية والتي تمثلت في تلك الرسالة التي أرسلها في ٤٤٣هـ / ١٠٥٢م إلى الخليفة القائم والمكتوبة بالرومية إلى جانب ترجمة لها بالعربية تخللت سطورها ، وقد رقت بحروف ذهبية على قطعة أرجوانية (٢) .

والواقع أنه يتقدم زوي في السن أصبحت أكثر تسامحا (٣) وظلت كذلك حتى توفيت في ٢٦ مايو ١٠٥٠م أول المحرم ٤٤٢هـ (٤) "وودعت بذلك حياتها الخيالية الغربية" (٥) .

وفي ١١ يناير ١٠٥٥م / ٩ شوال ٤٤٦هـ توفي قنسطنطين التاسع (٦) ، ويبدو أنه كان قد أعطى رأيه فيمن يخلفه على العرش ، لكن ذلك تم دون علم ثيودورا ، الممثلة الوحيدة الباقية للبيت المقدوني ، لذا فعندما سمعت بذلك عادت إلى القصر وسيطرت على الحرس الإمبراطوري ، وفي الحال "تقلدت الأطلال الباقية للحكم" (٧) وعادت إلى كامل سلطاتها (٨) وهكذا تقلدت ثيودورا السلطة الإمبراطورية بمفردها حتى توفيت في آخر أغسطس ١٠٥٦م (٩) أو بداية سبتمبر ١٠٥٦م (١٠) / السبت ١٦ جمادى الآخرة ٤٤٨هـ .

(١) أبو الفدا : المختصر في أخبار البشر ، ج ٢ ، ص ١٦٩ .

(٢) ابن الجبري : تاريخ الزمان ، ص ٩٧-٩٨ ، ولقد وردت السجلات في الأصل على النحو التالي (Bar Hebraeus, Op.cit, V. 1, P.P. 206-207). ١٠٥١/٤٤٣م .

(3) Ostrogorsky: Op.cit, P. 327.

(4) Ibid: P. 616; Previte Orton: Op.cit, V. 1, P. 274.

(5) Previte Orton: Op.cit, V. 1, P. 274.

(6) Ostrogorsky: Op.cit, P. 337; Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Chapter V, P. 204.

هنا خطأ ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٦٠٣ - ٦٠٤ ؛ Bar Hebraeus: Op.cit, V. 1, P. 207.

ابن الجبري : تاريخ الزمان ، ص ٩٨ ، في القول بأن قنسطنطين التاسع كان متزوجا من ثيودورا إنه قنسطنطين الثامن لأن قنسطنطين التاسع كان متزوجا من زوي لا ثيودورا . والراجح أن الثاني أخذ عن الأول هذا الخطأ .

(7) Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V, P. 204.

(٨) رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ٧٤ .

(9) Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V, P. 205.

حيث ذكرت هسي نقلا عن Scylitzes-Cedrenus أن وفاتها كانت في ٢٦ أغسطس ، أما هي فتقول أنها كانت في ٢١ أغسطس .

(10) Ostrogorsky: Op.cit, P. 338.

والواقع أن ثيودورا قامت بمحاولة جادة يحوطها التصميم التام لإدارة دفة الحكم ،
حقيقة أنها لم تتخذ زوجا لكنها إختارت وزيرا لها هو (Leo Paraspondylus) . وكان "واقعيًا
عنيذا ذو عمل جاد متواصل ، فافتتح سياسة إقتصادية في الداخل وعمل على إقرار السلام
في الخارج" (١) .

هنا يعقب (استروجورسكي) على نهاية الأسرة المقدونية بقوله " إنه بوفاة ثيودورا
إنتهت الأسرة المقدونية الشهيرة ، فكانت نهاية غريبة حقا لتلك الأسرة البيزنطية التي
جاهدت بشدة كي تؤسس نفسها ، وفي النهاية تماسكت بعناد لتواصل الحياة ، وذلك لمدة
الثلاثين سنة الأخيرة ، وبذلك مرت كل أعمالها العظيمة ذات الشهرة البعيدة المدى دون أن
يتغنى بها" (٢) .

أما عن العلاقات الإسلامية البيزنطية في الفترة الأخيرة من حكم قسطنطين
التاسع وفترة حكم ثيودورا حتى نهاية عهد الأسرة المقدونية ، فأهم ما يلاحظ فيها
بالنسبة للجبهة الشرقية ، أن طغرل بك أنهى حالة الهدنة بين السلاجقة وبين البيزنطيين وتقدم
في نهاية ٤٤٦هـ / ١٠٥٥م إلى أرمينية ثم إلى ملازكرد التابعة للبيزنطيين فحاصرها
وضيق على أهلها ونهب ما جاورها من البلاد وخربها ، عندئذ دخل نصر الدولة بن مروان
حاكم ديار بكر في طاعته وأرسل إليه الهدايا الكثيرة والقوات كي تحارب البيزنطيين تحت
لوائه (٣) . عندئذ أوغل طغرل بك في أراضي البيزنطيين وأحرز عليهم إنتصارات باهرة
ونهب بلادهم وقتل وسبى العديد منهم (٤) "وبلغ في عزوته هذه إلى أرزن الروم" ثم عاد إلى
آذربيجان عندما دخل عليه فصل الشتاء" (٥) .

(1) Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V, P. 204.

(2) Ostrogorsky: Op.cit, P. 338.

(٣) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٥٩٩ .

(٤) المصدر السابق نفس الجزء والصفحة : أبو الفدا : المختصر ، ج ٢ ، ص ١٧٢ : ابن كثير :

البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٦٥ .

(٥) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٥٩٩ .

أما عن العلاقة مع الفاطميين ، فتمّة رأي يذكر أن الخليفة المستنصر بالله الفاطمي استغل فرصة صفاء العلاقات بينه وبين الدولة البيزنطية وعمل على إنتعاش الحالة الإقتصادية في دولته فأرسل إلى الإمبراطور قسطنطين التاسع ، على أثر المجاعة التي حلت بمصر سنة ٤٤٦هـ / ١٠٥٥م يطلب منه أن يعمده بأربعمئة ألف أردب من القمح ، فأظهر الإمبراطور إستعداده لإجابة هذا الطلب ، لكنه لم يلبث أن توفي وخلفه الإمبراطورة ثيودورا ، فأشترطت لمعونة مصر أن يمدّها المستنصر بالجنود إذا ما اعتدى على بلادها أي معتد ، غير أن المستنصر رفض الموافقة على هذا الشرط ، فأجابته ثيودورا على ذلك بأن حالت دون إرسال الغلال إلى مصر (١) .

وقد زاد تعقيد الوضع أكثر بين البيزنطيين والفاطميين عندما أراد الخليفة المستنصر أن يرد إعتبار الفاطميين بإرسال جيش فاطمي لمحاربة البيزنطيين بقيادة مكيّن الدولة الحسن بن ملهم ، ونودى في بلاد الشام بالغزو والجهاد (٢) . وقد تنقل الجيش الفاطمي في أجزاء مختلفة من بلاد الشام وإستقر به المطاف أخيرا في أنطاكية ، عندئذ أرسلت الإمبراطورة ثيودورا أسطولا إلى أنطاكية مكونا من ثمانين قطعة "وخرج دوقس إنطاكية وبطركها في جماعة فظفروا بشنين للمسلمين معهما الغنائم" (٣) . وبذلك وقعت الهزيمة بالمسلمين وأسّر منهم عددا كبيرا (٤) وقتل من الفريقين عددا كبيرا وعاد الأسطول البيزنطي إلى اللاذقية (٥) .

عندئذ أرسل الخليفة المستنصر سفارة من قبله ، إلى الإمبراطورة ثيودورا ، على رأسها أبي عبد الله القضاعي (٦) . ثم إتضحت نوايا البيزنطيين أكثر عندئذ تجاه الفاطميين ،

(١) Canard (M.): Byzantium and the Muslim World to the Middle of the eleventh century, Cam. Med. Hist, V, IV, Part 1, Chapter XVII, P. 726;

جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٦ .

(٢) المقرئزي : إتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٣١ . والشوان مركب حربية بها مائة وأربعون مجدافا ، وكانت تعد أكبر

سفن الأسطول (حاشية عن دوري ، قوانين الدواوين) .

(٤) جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٦ .

(٥) المقرئزي : إتعاظ الحنفا ، ج ٢ ، ص ٢٣١ .

(٦) طية الجنزوري : المرأة في الحضارة البيزنطية ، ص ١٢٥ حاشية ٦٥١ .

عندما سمحت الإمبراطورة ثيودورا بالخطبة للخليفة القائم بأمر الله العباسي ، أثناء وجود أبي عبد الله القضاعي سفير الفاطميين بالقسطنطينية ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م (١) . ونحن نؤيد هنا الرأي الذي يقول : "إنه لا غرو فقد كان السلاجقة في ذلك الوقت أشد خطرا على البيزنطيين من الفاطميين الذين إضمحل سلطانهم في بلاد المغرب وأصبحوا يواجهون كثيرا من الصعاب في مصر" (٢) .

كان رد الخليفة المستنصر على تلك الإساءة التي لحقت بسفيره بل بخلافته كلها أن أخذ نفائس وكنوز كنيسة القيامة (٣) "فأحاط بما في قمامة وأخذه وأخرج البطريرك منها إلى دار مفردة" (٤) إلى جانب إغلاقه للكنائس بمصر وزيادة الجزية على النصارى ، بل ومطالبته الرهبان بها عن أربع سنوات (٥) وقد أدت كل تلك الإجراءات إلى التوتر الشديد في العلاقة بين الفاطميين والبيزنطيين (٦) .

ضغط حزب البلاط على الإمبراطورة ثيودورا في ١٠٥٦م / ٤٤٨-٤٤٩هـ كي تختار من يتولى الحكم بعدها . فوق إختيارها على البطريرك ميخائيل Michael ، المعروف بإسم العجوز أو (ستراتيوتيكوس Stratioticus) . فلما ماتت ثيودورا في بداية سبتمبر ١٠٥٦م / منتصف جمادى الآخرة ٤٤٨هـ ، تولى ميخائيل العرش بإسم ميخائيل السادس Michael VI ، ولم تتجاوز مدة حكمه سنة واحدة ، تألف أثناءها حزب لمقاومته برئاسة الجيش المرابط في آسيا الصغرى ، وهو الذي نادى بالقائد إسحاق كومنين Isaac Comnenus إمبراطورا (٧) .

-
- (١) إين ميسر : أخبار مصر ، ج ٢ ، حوادث ٤٤٧هـ ؛ المقرئزي : إتحاط الحنفا ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ .
(٢) جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٦ .
(٣) المرجع السابق ، ص ٢٤٧ .
(٤) المقرئزي : إتحاط الحنفا ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ .
(٥) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة .
(٦) المقرئزي : إتحاط الحنفا ، ج ٢ ، ص ٢٣٠ ؛ جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٧ .

(7) Ostrogorsky: Op.cit, P. 338; Larousse Encyclopaedia of Ancient and Medieval History, P. 297.

وهكذا طويّت فترة حكم الإمبراطورين زوي وثيودورا التي مثلت الحكم النسائي
الإمبراطوري المشترك لأول وآخر مرة في التاريخ البيزنطي إلى جانب فترة حكم زوي
وأزواجها الثلاثة كما مر بنا .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر العربية :

١- ابن الأثير الجزري : (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٢٢ م)

أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الملقب بعز الدين : الكامل في التاريخ ، الجزء التاسع ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م .

٢- ابن أبيك الدواداري : (ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م)

أبو بكر بن عبد الله : كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء السادس ، الدرة المضية في أخبار الدولة الفاطمية ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٣٨٠ هـ / ١٩٦١ م .

٣- ابن تغري بردي : (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٦٩ م)

جمال الدين يوسف : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ، ج ٤ ، (د ٠ م ، د ٠ ت) ، ج ٥ ، من سلسلة تراثا ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب .

٤- ابن العبري : (ت ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م)

أبو الفرج جمال الدين : تاريخ الزمان ، نقله إلى العربية الأب إسحق أرملة وصدر تباعاً في مجلة الشرق (١٩٤٩-١٩٥٦) ، قدم له الأب الدكتور جان موريس فيه في المناسبة المنوية السابعة لوفاة المؤلف ١٢٨٦-١٩٨٦ ، دار الشروق ، بيروت ، لبنان ١٩٨٦ .

٥- ابن القلانسي : (ت ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م)

أبو يعلى حمزه : ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٨٠ .

٦ - ابن كثير : (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م)
أبو الفدا الحافظ : البداية والنهاية ، الجزء الثاني عشر ، الطبعة الأولى ، بيروت
١٩٦٦ .

٧ - ابن ميسر : (ت ٦٧٧هـ / ١٢٧٨م)
أبو عبد الله تاج الدين محمد بن علي بن يوسف : أخبار مصر ، الجزء الثاني ،
مصر ١٩١٩ .

٨ - أبو الفدا : (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م)
عماد الدين إسماعيل : المختصر في أخبار البشر ، الجزء الثاني ، دار المعرفة
للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان .

٩ - السيوطي : (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م)
الإمام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر : تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد
محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة الأولى ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م .

١٠ - القلقشندي : (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)
أبو العباس أحمد بن علي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا ، الجزء الخامس ،
بيروت ١٩٨٠ .

١١ - المقرئزي : (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م)
تقي الدين أحمد بن علي : إتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، تحقيق
الدكتور حلمي محمد أحمد ، الجزء الثاني ، القاهرة ، ١٣٩٠هـ / ١٩٧١م .

١٢ - ياقوت الحموي : (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م)
شهاب الدين أبو عبد الله : معجم البلدان ، المجلد الأول ، دار صادر ودار بيروت .

ثانيا : المراجع العربية والمعربة :

١ - حسن حبشي :

الحرب الصليبية الأولى ، دار الفكر العربي ، ١٩٥٨ .

٢ - رنسيما : ستقن :

الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، مراجعة زكي علي ،

من سلسلة الألف كتاب ، الناشر مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦١ م .

٣ - علية عبد السميع الجنزوري :

المرأة في الحضارة البيزنطية ، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة

الأولى ، ١٩٨٢ .

٤ - محمد جمال الدين سرور :

سياسة الفاطميين الخارجية ، دار الفكر العربي ، ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م .

ثالثا : المصادر والمراجع الأجنبية :

Bar Hebraeus:

The Chronography of Gregory Abul Faraj, The Son of Aaron the Hebrew Physician, the First Part of His Political History of the world, Translated from Syriac by Ernest A. Wallis Budge, Volume 1, English translation, Oxford University Press, London, 1932.

Canard (M.):

Byzantium and Muslim world to the Middle of the eleventh century, Cam. Med. Hist., V. IV, The Byzantine Empire, Part 1, Byzantium and Its neighbours, Chapter XVII.

- Encyclopaedia Americana, V. 19.

- Ensslin (W.):

The Government and administration of the Byzantine Empire, Cam. Med. Hist, V. IV, The Byzantine Empire, Part 11, Government, Church and Civilization, Chapter XX.

- Hussey (J.M.):

The Later Macedonians, the Comneni and the Angeii 1025-1204, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V.

- Larouse Encyclopaedia of Ancient and Medieval History, General Editor: Marcel Dunan Honorary, Foreward by Arnold Toynbee.

- Ostrogorsky (G.):

History of the Byzantine state, translated by Joan Hussey, Oxford, 1968.

- Previte Orton (C.W.):

The Shorter Cambridge Medieval History, V. 1, Cambridge University Press, 1977.

- The New Encyclopaedia Britannica, V. VI, 1768.